ISSN: 2335-1756
NDL/BNA/4949-2013
مجلة مقاربات
مجلد: 03 عدد: 05 أكتوبر 2015

المفاهيم حول المقدّس الدِّيني وأثرها في مسارات حوار الأديان

د.محمـــد بودبـــان
جامعـة الأمـير عبد القـادر
للعلوم الإسـلامية قسنطينة

ملخَّص:

تتناول هذه المقالة بالدراسة موضوع المقدَّس؛ وتحاول بحثَه في سياق ارتباطه بالحوار الدِّيني؛ حيث يُعدُّ – في الغالب الأعمِّ– من العوائق والعقبات في مجال التواصل بين أتباع الدِّيانات والمذاهب المختلفة، وذلك بسبب ما يَسِمُهُم به من الخصوصيَّة الثقافيَّة والدِّينيَّة والاجتماعيَّة؛ حيث إنَّ معاني التقديس تدخل جميع مظاهر الحياة والتمفصلات الحضاريَّة، وتترك فيها آثارها العميقة في النَّفس والاجتماع؛ وهو ما يقتضي تعاملاً ممنهجًا ومسؤولاً في مختلف مسارات الحوارات الدِّينيَّة حينئذٍ.

Abstract

This article examines the topic of "sacred"; and its relationship with the inter-religious dialogue; for it is generally found that it make many obstacles around it, especially in the area of communication between the partisans of different religions and sects.

We should therefore be careful in the study of such subjects; because it relates to religious, cultural and social specificities; and it has a great impact on the modalities of religious dialogue, and in its results.

مقدِّمة

إنَّ قيام الصراعات الفكرية –بل والعسكرية كذلك– إنَّما يكون على أسس إيديولوجية مبتنية على الخصوصيَّات الدِّينيَّة والثقافيَّة بالأساس؛ بما يُلقي بظلالٍ كثيفة على جميع أشكال التواصل والاتِّصال بين الشعوب والحضارات المختلفة، وكذلك ههنا الحوار الدِّيني؛ حيث لابدَّ من ابتنائه على مراعاة تلك الخصوصيات للدِّيانات والثقافات.

وإنَّ أهمَّ ما ينبغي مراعاته في تلك الخصوصيَّات: الوعيُ بحدود **المقدَّس** لدى الآخر، ولا يكون ذلك إلا بضبط المفاهيم المتعلِّقة به؛ وتوضيح الرؤية المنهجية في أسس الحوار حول **المعالم المقدَّسة** لكلّ ديانة.

- **<u>الإشكالية</u>**.

يمكننا صياغة إشكالية هذه المقالة المراد حلُّها في التساؤل الآتي: « **ما قيمة الوعي بمنزلة التقديس من الظاهرة الدِّينية في إنتاج حوارٍ دينيٍّ مثمرٍ وبنَّاء؟**».

- **<u>المنهجية</u>**.

انطلاقي ههنا سيكون من تحديد مفهوم: "**المقدَّس**" ومقابِله؛ ثم سأحاول تدقيق المجالات التي يدخلها التَّقديس مع بيان دوره في تشكيل الخصوصيَّة الدِّينيَّة والثقافيَّة لكتلةٍ بشريَّةٍ ما. ثمَّ بعد ذلك أقوم بتوضيح الآثار النفسيَّة والاجتماعيَّة للتقديس سواء في الأفراد، أم في مؤسَّسات المجتمع. وبعدها أحاول استنباط الآثار الإيجابية، وكذلك السلبيَّة في مجال الحوار الدِّيني والمبتناة على الوعي بالمفاهيم المرتبطة بالتقديس، والمقدَّس الدِّيني، أو إهمالها، والجهل بها، أو استغلالها بشكل سيِّء.

- **المبحث الأوَّل: الجهاز المفاهيمي**

إنَّه لا أحكامَ منضبطةً إلاَّ بمفاهيم منضبطة؛ فالألفاظ لها نشأةٌ، وتطوُّر، وتغيُّر في الدلالة، وربمَّا يؤول بعضها – أو كلُّها– إلى ضعفٍ فاضمحلال؛ والأحكام تبعٌ لها. ولذلك فإنَّ تتبُّع ذلك يقفنا على حقيقة المفاهيم والأحكام معًا.

ونحاول ههنا النظر في تاريخ دلالات المقدَّس ومقابله، ليكون ذلك عونًا لنا على حسن الحوار الدِّيني، فالحوار موصوفٌ ههنا بكونه دينيًّا، وجوهر الدِّين وأسُّه هو الـ: "**المقدَّس**" وكذاك مقابلُه بطريق التبع والتمييز له. والحوار بين أهل الأديان المختلفة

MOKARABAT

سيؤثِّر فيه ولا بدَّ اختلافهم في المُقدَّس – وإن اتَّفقوا عمومًا في أساس التقديس ومشاعره وكثيرٍ من مظاهره– فإذن يكون الوعيُ بالمفاهيم سبيلاً في التخفيف من وطأة الخلاف السلبيّ، وأداةً لإثمار الحوار.

المطلب الأوَّل: تعريف المقدَّس.

ذكرنا ههنا: "**المقدَّس**" لأنَّه اللفظ الدقيق؛ وإنَّما بعض لوازمه في غير العربية؛ وكذلك في لغة علماء الاجتماع والإناسة، حيث نجدها في لفظة: "**المحرَّم**" أو ما اصطلح عليه عندهم بالـ: "**طابو**". فنذكر إذن أوَّلاً مفهوم المقدَّس، ثمَّ نعرِّج تتمَّةً على الألفاظ المصاحبة له.

أوَّلا: لغةً.

القُدُس بضمَّتين وإسكان الثاني تخفيف، هو الطُّهر؛ وتقدَّس الله تنزَّه، وهو القدُّوس.[1] ومنه قيل: "الأرض المقدَّسة" يراد: الأرض المطهَّرة بالتبريك؛ ومنه قوله تعالى حكايةً عن الملائكة: ﴿**وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ**﴾[2] أي ننسِبُك إلى الطهارة. وحضيرةُ القدس هي الجنَّة؛ لأنَّها موضع الطَّهارة من الأدناس التي تكون في الدُّنيا، من الغائط والبول والحيض، وأشباه ذلك.[3] والتقديس قريبٌ من التسبيح في المعنى؛ فمن قدَّس الله فقد نزَّهه من الشِّرك، وأخلص له الوحدانيَّة... ومنه: "روح القدس" لأنَّه ينزل على كلِّ طاهرٍ من الأنبياء والرُّسل؛ ويطهِّر كلَّ من نزل عليه.[4]

وعند البابليين اللفظ *quddušu* مقدس يأتي كنعتٍ مرادفٍ لمصطفًى؛ "صافٍ، خالص، طاهر، مشرق".[5]

ثانيًا: اصطلاحًا.

التقديس في الاصطلاح مرتبطٌ أساسًا بالذَّات الإلهيَّة؛ وهو تنزيه الحق عن كلِّ ما لا يليق بجنابه، والنقائص الكونيَّة مطلقًا؛ وعن جميع ما يعدُّ كمالاتٍ بالنِّسبة إلى غيره من الموجودات مجرَّدة. وهو أخصُّ من التَّسبيح كيفيَّةً وكمِّيَّةً؛ أي أشدُّ تنزيهًا منه، وأكثر. وذلك يؤخَّر عنه في قولهم: "سُبُّوحٌ قُدُّوسٌ". ويقال: التسبيح تنزيهٌ بحسب مقام الجمع فقط؛ والتقديس تنزيهٌ بحسب الجمع والتفصيل، فيكون أكثر كمِّيَّةً.[6] فهو إذن عبارةٌ عن تبعيد الربِّ عمَّا لا يليق بالألوهيَّة.[7]

وأمَّا في الأصل فإنَّ المقدَّس ما حرِّم مسُّه والدنوُّ منه بتاتًا؛ إلاَّ إذا توفَّرت بعض شروط الطَّهارة الطَّقسيَّة.[8] ولذلك نجد أنَّ إيميل دوركايم كان يقصد بكلمة "**مقدَّس**" الأشياء التي تحميها الممنوعات وتعزلها، وبكلمة "**دنيوي**" الأشياء التي تطبَّق عليها الممنوعات، والتي ينبغي أن تبقى بعيدةً عن الأولى.[9]

ولعلماء الاجتماع والإناسة اهتمام بالغ بموضوعات المقدَّس؛ ومن بين التعاريف الواردة في أحد معاجم العلوم الاجتماعيَّة الآتي:

- كلُّ ما هو خاضعٌ لحماية الدِّين؛ ومن ثمَّ لا يمكن انتهاكه، أو الخروج عليه.
- الأشياء التي تحظى بالقبول والاحترام والتقدير، ويعيب انتهاكها.

1- أحمد بن محمَّد بن علي الفيُّومي المقري: المصباح المنير، مكتبة لبنان: بيروت– لبنان، 1987م، ص188.

2- البقرة: 30.

3- أبو محمَّد عبد الله بن مسلم بن قتيبة: تفسير غريب القرآن، تحقيق السيد أحمد صقر، دار الكتب العلميَّة: بيروت– لبنان، 1978م، ص8-9. وانظر كذلك: أبو حاتم أحمد بن حمدان الرازي: كتاب الزينة في الكلمات الإسلاميَّة العربيَّة، تحقيق حسين بن فيض الله الهمداني اليعبري الحرازي، (ط1)، مركز الدراسات والبحوث اليمني: صنعاء– اليمن، 1994م، ص262.

4- كتاب الزينة في الكلمات الإسلاميَّة العربيَّة، مرجع سابق، ص262.

5- P. Marie-Joseph LAGRANGE : Etude sur les Religions Sémitique; 2éme édition ; Librairie Victor LECOFFRE : Paris-France, 1905, p142-143.

6- علي بن محمَّد الشريف الجرجاني: كتاب التعريفات، مكتبة لبنان: بيروت– لبنان، 1985م، ص67-68.

7- المرجع نفسه.

8- صبحي حموي اليسوعي: معجم الإيمان المسيحي، أعاد النظر فيه من النَّاحية المسكونيَّة الأب جان كوربون،(ط1)، دار المشرق: بروت– لبنان، 1994م، ص 475.

9- جيل فيريول: معجم مصطلحات علم الاجتماع، ترجمة أنسام محمد الأسعد، مراجعة بسام بركة، (ط1)، دار ومكتبة الهلال: بيروت– لبنان، 2011م، ص155.

MOKARABAT

- السمات الثقافيَّة، أو مظاهر الثقافة التي تعبِّر على نحوٍ رمزيٍّ عن قيمٍ ثقافيَّة هامَّة، فتثير نوازع الاحترام أو الرَّهبة الشَّديدة.
- الشَّيء الذي يحميه الدِّين ضدَّ الاعتداء، أو الاغتصاب، والهجوم والتدنيس.1
- فصل أيّ شيءٍ عن الحياة الاعتياديَّة باعتبار أهميَّته الخارقة للطبيعة (غير العاديَّة).2

وأمَّا كلمة "**طابو**" فهي ذات أصل تونجاني Tongan فـ"**Ta**" بمعنى معيَّن؛ و"**Bu**" وهو intensifying adjectif نعت تكثير؛ ويكون المعنى العام: "**المعيَّن بشدَّة**"؛ وهو يصدق على كل الأشياء، الأشخاص، الحيوانات، الأماكن، والأفعال... إلخ.[3]

المطلب الثاني: تعريف المدنَّس.

وهنا قد أخذتنا الحيرة في تحديد المقابل للفظة: "**مقدَّس**" لعدَّة اعتباراتٍ منها:

- أنَّ من جعل مقابله: "**المدنَّس**" فكأنَّما قابل بين الطاهر والنجس؛ أو بين المحرَّم والحلال؛ وأمَّا التقديس في حدِّ ذاته فهو أوسع في دائرته المفاهيميَّة من تلك المقابِلات؛ ولفظة: "**طابو**" تتقاطع مع المقدَّس والحلال والحرام معًا.
- ومن جعل مقابله: "**الدنيوي**" وهو يقصد بذلك ما لم يُخلع عليه الصفات الدِّينيَّة فوق الطبيعيَّة، فكذلك لا يكون مقابلاً تامًّا للـ "**المقدَّس**" ففي مساحاتٍ لا بأس بها يكون مقابل المقدَّس كذلك دينيًّا صميمًا.

وأرى أن نأخذ لفظ المدنَّس كمقابل للمقدَّس، مع الاستحضار ذهنيًّا عدم المقابلة التامَّة بينهما.

أوَّلا: تعريف المدنَّس لغةً.

ههنا النَّجس والدنس Impurity, Dirtiness: فالنجس ضدُّ الطاهر.[4] وهو بفتح النُّون والجيم عند الفقهاء: عينُ النَّجاسة؛ وبكسر الجيم، وفتح النُّون: ما لا يكون طاهرًا. وأمَّا في اللُّغة فهما متساويان.[5]

والنجاسة تقابلها الطهارة والنظافة والفرق بينهما: أنَّ الطهارة تكون في الخِلقة والمعاني، لأنَّها تقتضي منافاة العيب... والنظافة لا تكون إلاَّ في الخَلْق واللِّباس؛ وهي تفيد منافاة الدَّنس، ولا تستعمل في المعاني.[6] و"النَّجاسة ضربان: ضربٌ يدرك بالحاسة؛ وضربٌ يدرك بالبصيرة؛ وعلى الثاني وصف الله به المشركين".[7] ويتجاوز في المجاز الدنس الأمور الماديَّة، قال الزمخشري: ومن المجاز: تدنَّس عرضه؛ ودنَّسه سوء خُلقه؛ وهو دنس المروءة، ودنس الثِّياب، ودنس الجيب والأردان؛ وهو يتصوَّن من الأدناس والمدانس.[8]

ثانيًا: اصطلاحًا.

لقد أرجأت ههنا بعض الكلام عن تاريخيَّة لفظة الـ: "**المقدَّس**" حيث وجدت ذلك يفيدنا أكثر في فهم مقابل التقديس، والذي نشأ جنبًا إلى جنب معه.

فمفردتا: "The sacred and the profane" أصلهما ومرجعهما إلى اللاتينية. كانت لفظة Sacrum تعني عند الرومان ما هو في حيازة الآلهة، أو في سلطانهم... في حين كان Profanum يدل على ما هو أمام معبد منطقةٍ ما، وكان يطلق في

1- مصلح الصالح: الشَّامل، قاموس مصطلحات العلوم الاجتماعيَّة، (ط1)، دار عالم الكتب: الرياض- المملكة العربيَّة السعوديَّة، 1999م، ص467.

2- المرجع نفسه، ص256.

3- Bertram C. A. Windle: Religions: past and present, an elementary account of comparative religion ; Williams and Norgate LTD: London, 1928; p168.

4- مجد الدِّين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي: بصائر ذوي التَّمييز في لطائف الكتاب العزيز؛ ت محمَّد علي النجَّار، (دط)، المكتبة العلميَّة: بيروت-لبنان، (18/5).

5- محمد علي التهانوي: كشّاف اصطلاحات الفنون والعلوم، ت علي دحروج، ترجمة فارسية: عبد الله الخالدي، ترجمة أجنبية جورج زيناتي، إشراف ومراجعة: رفيق العجم؛ (ط1)، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت- لبنان، 1996م، ص1683.

6- أبو هلال العسكري: الفروق اللغوية ، تحقيق محمَّد إبراهيم سليم، دار العلم والثقافة: القاهرة- مصر، ص264.

7- بصائر ذوي التَّمييز في لطائف الكتاب العزيز؛ مرجع سابق، (19/5).

8- أبو القاسم جار الله محمود بن عمر بن أحمد الزمخشري: أساس البلاغة، تحقيق محمَّد باسل عيون السود، (ط1)، دار الكتب العلميَّة: بيروت- لبنان، 1998م، ص300.

MOKARABAT

الاستعمال القديم مقصورًا على الأمكنة. وعنت Profanare في الأصل: إخراج التقدمة قُدَّام المعبد (The fanum) حيث تمَّت التقدمة. إنَّ لفظتي: "Sacer" و"Profanus" استُعملتا للتعبير عن مكانين مخصوصين، ومتمايزين؛ أحدهما Sanctum تحيط به الجدران أو يُجعل معزولاً عن غيره؛ فيما يكون الآخر للاستعمال المدنَّس (For profane use).[1]

والقداسة (الطهارة) لها ارتباط بالآلهة، والنجاسة L'impureté بالشياطين.[2] وإنَّ المعنى الأصيل (الأقدم) للطهارة نتج عن علاقته الأساس بالنجاسة؛ حيث حين كان يُجتنب شيءٌ ما؛ لم يكن يُدرى على وجه واضحٍ، إن كان بالإمكان عدُّه طاهرًا أم نجسًا. فلم يكن ثمَّ فارقٌ بين الدم البالغ القداسة لتقدمة الكفَّارة، وآخر لجثة أحد الزواحف.[3]

فإذن الأمر مبتنٍ على الأمر والنهي وقداستهما من مصدريهما، وما يحفُّ التعامل معهما من إضفاءات ماورائيَّة، نادرة التعليل، فالدم واحدٌ، ولكن بعضه مقدَّس؛ والأرواح واحدةٌ، وبعضها مقدَّس؛ والأشجار واحدةٌ، وبعضها يقدَّس... الخ. والأسطورة وبناؤها له أثر في إضفاء هذا التمييز بالقداسة.

المطلب الثالث: مجالات التقديس ودوره في تشكيل الخصوصيَّات الدينيَّة والثقافيَّة.

إنَّه خلال العمليات التَّحليليَّة للتشكُّلات والتمظهرات الدِّينيَّة للإنسان، ننتهي دائمًا إلى نواةٍ عصيَّةٍ عن الكشف الإنساني، والتي تشكِّل المكوِّن الأساسي للإنسان المتديِّن، الذي يؤسِّس **خصوصيَّته**، رابطًا إيَّاها بأمرٍ متعالٍ، ألا وهو "المقدَّس" الأصل الجذريّ للتعبيرات الأسطوريَّة، والمنبعُ التحصُّن الذي لا يتيسَّر إدراكه موضوعيًّا في تعدديَّة المعتقدات والطقوس.[4]

وقبل أن نتكلَّم عن دور المقدَّس في تشكيل تلك الخصوصيَّة، ننظر أوَّلاً في المجالات التي يدخلها التقديس؛ فهو يعرِّفنا حينها بالمساحة التي يبسط سلطانه عليها؛ ومنه مقدار تغلغله في الحياة الثقافية والفكرية والاجتماعية؛ فلنشرع في المقصود كالآتي:

أوَّلا: مجالات التقديس.

أ/ تقديس الآلهة.

الآلهة هي عماد الديانة بشكلٍ عام، وأسُّها، ومنبع تفريعاتها، وأساس تبريرات فلسفة فكرها، ومصدر سلطانها في أنفس معتنقيها؛ وإذا كان التقديس واجبًا في حقِّ الآلهة، فإنَّ تحديد العلاقة بين رتبة الإلهيَّة، وحصول التقديس يكون وفق اتِّجاهين:

- **يحدث الأوَّل** من خلال التقرير المباشر لإلهيَّة شيءٍ ما، فيلزمه التقديس كما مرَّ بنا.
- **ويحدث الآخر** من خلال ترفيعٍ لذاتيَّةٍ دنيا من طريق تقديسها شيئًا فشيئًا، إلى أن يُبلَغَ بها مصافَّ الإلهيَّة فتتمَّ قداستُها حينئذٍ. وهذا ما جعل باحثين يعتقدون أنَّ أصل التأليه إنَّما نشأ من تقديس البشر. ونجد الإغريقيّ يوهيميروس Euhemeros أشار في كتابه: "التَّاريخ المقدَّس" إلى أنَّ الآلهة كلَّهم كانوا في الماضي البعيد رجالاً بارزين بين النَّاس؛ وكانت لهم مكانةٌ ممتازة في حياتهم؛ ثمَّ قدَّسهم النَّاس بعد مماتهم.[5]

ب/ تقديس الكائنات غير المرئيَّة.

وعمومًا نقصد ههنا تقديس الأرواح، والاعتقاد في الأرواح له إيغاله في القدم؛ وهو ما قد جعل بعض الباحثين يجعلون منه أساسًا في نشأة العقيدة الدِّينيَّة والدِّين. والأرواح ههنا قد تكون أرواحًا بشريَّةً لأناسٍ رحلوا وغيَّبهم الموت، وقد تكون لمخلوقاتٍ لا تقع في دائرة المشاهدة البشريَّة؛ ولا يضير بعد ذلك أن نسمِّيَهم ملائكةً أو شياطين، يكفي أنَّ المؤمنين بالأرواح يجعلونهم فريقين: أخيارًا، وأشرارًا.

1- See: Encyclopedia of Religions ; 2nd edition ; Macmilan reference ;USA (12/7964).

2- Etude sur les Religions Sémitique; Op.cit, p141.

3-Alttestam. Religionsgeschichte, 2éme édition, p149. cité par : P. Marie-Joseph LAGRANGE : op.cit, p141.

4- ميشال مسلان: علم الأديان، مساهمة في التأسيس؛ ترجمة عز الدّين عناية، (ط1)، كلمة، المركز الثقافي العربي: أبو ظبي- الإمارات العربيَّة المتَّحدة، 2009م، ص15.

5- فراس السواح: دين الإنسان؛ بحث في ماهية الدّين ومنشأ الدافعَ الدّيني (ط4)، دار علاء الدّين، دمشق- سوريا، 2002م، ص204.

والتَّقديس بالمعنى الدِّيني الذي أوضحناه، يشمل المقصود بالعبادة نفعيًّا، من استجلاب النَّفع، واستدفاع الضرِّ، فيشمل تقديس الأرواح الخيِّرة والشرِّيرة على السواء عمومًا؛ إلاَّ أنَّ معنى التقديس في الإسلام لا ينطبق أساسًا على الأرواح الشرِّيرة فهي خبيثة.

ج/ تقديس الأشخاص.

والمراد بتقديس الشخص في الإسلام: رفعه فوق منزلته التي أنزله الله إيَّاها، معتقدًا أنَّ له من القداسة الذاتيَّة، أو المكتسبة، ما يستوجب الخضوع له، والإذعان لأوامره دون عرضها على ميزان الكتاب والسنَّة؛ مع التوجُّه إليه حيًّا أو ميِّتًا، بأنواع العبادات التي لا يجوز التوجُّه بها لغير الله.[1]

وتقديس الأشخاص سبيل إلى رفعهم إلى الإلهيَّة مع تقادم الزمان كما مرَّ بنا، ولنا مثالٌ في ديننا عن شرك قوم نوح، وكيف ألَّهوا بشرًا" قال ابن عبَّاسٍ في قول الله تعالى ﴿**وَقَالُوا لاَ تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلاَ تَذَرُنَّ وَدًّا وَلاَ سُوَاعًا وَلاَ يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا**﴾[2]: «أسماء رجالٍ صالحين من قوم نوحٍ؛ فلمَّا هلكوا أوحى الشَّيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصابًا، وسمُّوها بأسمائهم، ففعلوا. فلم تُعبد، حتَّى إذا هلك أولئك، وتنسَّخ العلم عُبدت»[3].

د/ تقديس النُّصوص الدِّينيَّة.

يمثِّل "النَّصُّ الموحى" في حياة الأمم والشُّعوب القيمةَ الأقدس في تراثها الرُّوحي، وتأثيراتها السُلوكيَّة وأنظمة القيم وانتظام علاقاتها.[4] ولعلَّ السبب راجعٌ بالأساس إلى كونه يحمل معالم المقدَّس كلِّها: فالنَّاطق به، أو كاتبه، أو الصادر منه: "**مقدَّسٌ**"؛ ورغبته: "**مقدَّسة**"، والنَّص الدِّينيُّ هو الذي يصوغ تلك الرغبة؛ والحلال والحرام صورتها أي: "**افعل**" و"**لا تفعل**" وطقوس التعامل مع النَّص، أو حفظه، أو الأعياد المرتبطة به كلُّها: "**مقدَّسة**". وطريقة التعامل في التلفُّظ به، أو فهمه، تحفُّها في أغلب الدِّيانات الطابوهات المقدَّسة.

هـ/ تقديس المعنويات والأفكار.

وتقديس المعنويات عادةً يكون بعد تجسيدها في معبودات حسِّيَّة؛ إذ إنَّ من طبيعة الإنسان أن يخلع الصورة الماديَّة على المعاني المجرَّدة؛ لأنَّ الإنسان قلَّما يدرك المعنى المجرَّد إلاَّ أن تقوم له في نفسه صورةٌ ماديَّةٌ.[5]

وأمَّا تقديس الأفكار فيأتي في صورةِ المعتقدات – دينيَّةً كانت أم غير دينيَّة– وكلَّما كانت الفكرة محافظة على تجرُّدها، كلَّما كانت حيَّةً محيِيَةً، عصيَّةً على الضعف أو الاضمحلال؛ وكلَّما كانت الفكرة متجسِّدةً في نظر المؤمنين بها، وتقصر أفهامهم عن معانيها المجرَّدة كلَّما كانت نهايتها وشيكة، أو في أحسن الأحوال ستكون آثارها ضعيفة.[6]

و/ تقديس الأماكن والأزمنة.

الالتجاء الروحي إلى مكانٍ مقدَّسٍ أمرٌ جوهريٌّ في طبيعة الأديان جميعًا.[7] وفي الديانات الثلاث: الإسلام، المسيحيَّة، واليهوديَّة؛ ليس عجبًا أن تتَّفق الفكرة التي أدَّت إلى تشييد الأماكن المقدَّسة، أو تكاد تتَّفق. وهذه الفكرة لا تقف عند تقديس المكان الذي نزل الدِّين فيه... وإنَّما جوهر هذه الفكرة تعيين المكان الذي يجتمع النَّاس فيه، ليتوجَّهوا بقلوبهم إلى الله؛ والذي يقبل توبة التائب من آثامه.[8]

1- محمَّد أحمد لوح: تقديس الأشخاص في الفكر الصوفي، (ط1)، دار ابن القيِّم: الدمَّام- المملكة العربيَّة السعوديَّة، دار ابن عفَّان: القاهرة- مصر، 2002م، (45/1).

2- نوح: 23.

3- البخاري: تفسير القرآن، باب "ودًّا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق".

4- زهير بيطار: حوارات حول فهم النَّص، (ط1)، دار الهادي: بيروت-لبنان، 2004م، ص5.

5- محمَّد حسين هيكل: الإمبراطوريَّة الإسلاميَّة والأماكن المقدَّسة، دار الهلال: القاهرة- مصر ، ص179.

6- للتوسع في فهم الفروق بين الفكرة المجرَّدة والفكرة المتجسِّدة، ينصح بقراءة كتاب مالك بن نبي: الصراع الفكري في البلاد المستعمرة؛ دار الفكر: دمشق- سوريا 2002م، ابتداء من ص15.

7- الإمبراطوريَّة الإسلاميَّة والأماكن المقدَّسة، مرجع سابق، ص113.

8- المرجع نفسه، ص116.

وتقديس الأزمنة واضحُ الصُورة في الأعياد وطقوس الشعائر، فتكون مرتبطة بفصلٍ معيَّنٍ من السنة، أو نشاطٍ يكون في زمن يعود كلَّ عام كجني المحاصيل مثلاً؛ أو مظاهر كونيَّة مرتبطة بمنازل القمر، أو بزوغ النجوم والكواكب أو أفولها... الخ.

ز/ تقديس الحيوانات والأشياء.

حقيقةٌ ماثلة لكلِّ ذي عينين؛ أنَّه لم يُستثن شيءٌ من العبادة والتقديس: حقيرًا كان في أصله، أم جلَلاً؛ مشهودًا أو غائبًا؛ ذكرًا أو أنثى، جسدًا أو روحًا؛ حجرًا، شجرًا، جمادًا، وماءً، ودخانًا...

والناظر في شتَّى الحضارات سيقف على تأليه الحيوانات بصورة كبرى؛ كالحضارة المصريَّة حيث ظهرت الرموز الدِّينيَّة للآلهة في مصر منذ أواخر العصر الحجري المعدني؛ مثل الصقر رمز "**حورس**" والبقرة رمز "**حتحور**" والأفعى "**واجيت**". فضلاً عن تمثيل القرابين، مثل الطيور التي شملت الوز، والبطَّ والحمام.[1] ولعلَّ السبب وراء استعمال صورة الحيوان وشكله عند السومريّين، هو نظرتهم لها، كونها رموزًا لمفاهيم علويَّة.[2] وقد مرَّ بنا آنفًا سلوك المتديّنين نحو التجسيد للمعنويَّات.

ثانيًا: دوره في تشكيل الخصوصيَّات الدِّينيَّة والثقافيَّة.

إنَّ الحوار من حيثُ هو مراجعة[3] الكلام بين طرفين أو أكثر، يعدُّ من أهمِّ الوسائل الدعويَّة عند كلِّ من يريد لأفكاره الانتشار؛ وهو وسيلة حضاريَّة لبيان المواقف والأفكار، والمذاهب والأديان؛ وكذلك للدفاع عنها. ليس ذلك وفقط؛ بل هو وسيلةٌ لنموِّ الأفكار، وانتشارها، وتصحيحها، وتطويرها.

وعلى ذلك، فإنَّ الحوار يخضع لنيَّاتِ المتحاورين؛ وخلفيَّاتهم الاعتقاديَّة والدِّينيَّة والمذهبيَّة، والفكريَّة؛ فهي التي تخطُّ له مساراته، وتضبِط وُجهاتِهِ؛ أي بسبب خصوصيَّات المتحاورين أفرادًا وجماعات، بما لهم من مميِّزات جنسية، وإثنية، وعرقيَّة؛ وما صبغهم بهم التاريخ، ووسمتهم به الجغرافيا.

تلك السمات التي تشكِّل مجموعةً من القواسم المشتركة، نجدها لها منابع أصيلة، هي التي أمدَّت غيرها؛ وهي في العموم منابع دينيَّة، أرست دعائم ثقافة مجتمعيَّة بما يتوارثه النَّاس جيلاً عن جيلٍ. ثمَّ طولُ الزمان مع تطور المعتقدات، وازدياد مشاعر التقديس، وتزايد الطابوهات، كلُّ ذلك يزيد من تغلغل المقدَّس إلى كلِّ تمفصلات الحياة الاجتماعية والثقافيَّة، مع تعقدُّ الآثار النفسانية والاجتماعية له. والخلاصة أنَّ المقدَّس والتقديس – حتى في صورته غير الدِّينيَّة– يعدُّ أساسًا وجوهرًا في تشكيل الخصوصيَّة الفارقة بين المجتمعات في شتَّى تمظهراتها الحياتية الظاهرة والباطنة على السواء.

ويمكننا أن نأخذ مثالاً على ذلك اختلاف الشرق والغرب؛ حيث يمكن – ومن خلال الحوار البنَّاء المثمر المراعي للخصوصيَّات– أن يحدث التكامل بينهما. ويعجبني ههنا كلام نفيسٌ لبديع الزمان سعيد النُّورسي حيث يقول: والحالُ أنَّ كلَّ قومٍ يلائمه لباسٌ على قدِّه وقامته؛ وحتَّى لو كان نوع القماش واحدًا، فإنَّه يلزم الاختلاف في الطراز. إذ لا يمكن إلباس المرأة ملابس الشُّرطي، ولا يمكن إلباس العالِم الدِّينيّ ملابس الخليعات. فالتقليد الأعمى يؤدِّي في كثيرٍ من الأحيان إلى حالةٍ من الهزء والسُّخريَّة كهذه، لأنَّه: إن كانت أوروبا حانوتًا أو ثكنةً عسكريَّةً، فإنَّ آسيا تكون بمثابة مزرعةٍ، أو جامعٍ. وإنَّ صاحبَ الحانوت قد يذهب إلى المسرح، بينما الفلاَّح لا يكترث به. وكذلك تباين أوضاع الثكنة العسكريَّة، والمسجد، أو الجامع. ثمَّ إنَّ ظهور أكثر الأنبياء في آسيا، وظهور أغلب الحكماء والفلاسفة في أوروبا، رمزٌ للقدر الإلهي، وإشارةٌ منه إلى أنَّ الذي يوقظ أقوام آسيا ويدفعهم إلى الرقيّ، ويحقِّق إدامةَ إدارتهم هو الدِّين والقلب. أمَّا الفلسفة والحكمة فينبغي أن تُعاونا الدِّين والقلب، لا أن تحُلاَّ محلَّهما.[4]

1– عمار طارق توفيق: التوظيف الحيواني في حضارتي بلاد الرافدين، ومصر القديمة – لمحاتٌ حضارية من الناحية الفنِّيَّة والأدبيَّة– مجلة كلية الآداب، جامعة بغداد، العدد 97، ص148.

2– المرجع نفسه، ص149.

3– فالحاء والواو والراء ثلاثة أصول: أحدها لونٌ، والآخر الرجوع، والثالث أن يدور الشَّيء دوراً [...] فيقال حار، إذا رجع، قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ بَلَى﴾ [الانشقاق: 14،15]. أحمد بن فارس: المقاييس في اللغة ، ت شهاب الدّين أبو عمرو؛ دار الفكر: بيروت– لبنان، ص287.

4– بديع الزمان النورسي: كليات رسائل النور: المكتوبات؛ ترجمة إحسان قاسم الصالحي؛ شركة سوزلر: القاهرة– مصر، 2001م، ص 416-417.

وحتَّى حينما نتحاور حول إغراق الغرب في الماديَّة مثلاً، لا ينبغي أن يكون كلامنا إلاَّ من خلال إرادتنا تعديل ذلك؛ أليس في الشرق شطط في الروحانيَّة؟ بلى. يقول أحمد أمين رحمه الله: نعم، إنَّ الروحانيَّة في الشرق بولغ فيها؛ كما بولغ في ماديَّة الغرب؛ فاعتراها كثيرٌ من الخرافات، والأوهام من تدجيلٍ وتخريفٍ، واعتقادٍ شديدٍ في الأرواح، وغير ذلك من الأوهام. ويظهر ذلك أكثر ما يظهر في الناحية التي تشيع فيها الروحانيَّة كالتصوُّف. فكم مُنِي التصوُّف بالدجَّالين؛ لأنَّ التصوُّف مبنيٌّ على الذوق، لا على العلم والعقل. وإذا بني على الذوق أمكن أن تقوم فيه الادِّعاءات الكاذبة، والأقوال الفاسدة.[1]

الشاهد من كلِّ هذا الكلام، أنَّ الحوار بين الجماعات المتباينة الثقافات والدِّيانات، والطبائع والميولات، لا يمكن أن يكون مثمرًا إلاَّ إذا كان بتفهم للخصوصيَّات، ووعيٍ بحدودها، وقدرةٍ على الولوج إلى موضوعاتها، والهدف واحدٌ: خير البشريَّة جمعاء.

- **المبحث الثاني: آثار التقديس النفسية والاجتماعيَّة، وتقاطعاتها مع مسارات حوار الأديان.**

المطلب الأوَّل: آثار التقديس النفسية والاجتماعية.

إنَّ المتتبِّع لكلام الباحثين في مجال الظاهرة الدِّينيَّة من شتَّى التخصُّصات، يجدهم في نتائجهم التي يصلون إليها في كلِّ ما يتعلَّق بآثار مكوِّنات الظاهرة الدِّينيَّة منقسمين: بين من يبرز الآثار الإيجابيَّة بصورةٍ أكبر – أو لربَّما يقتصر عليها– ومنهم من يبرز الآثار السلبيَّة – ولربَّما يقتصر عليها كذلك– ويتحكَّم في تلك النظرة المشارب والمناهل الفكريَّة، والدِّينيَّة، والمذهبيَّة التي قام عليها فكر الباحث، أو المدرسة التي ينتمي إليها.

ولعلَّ الأمر في المكوِّن المدروس ههنا – وهو التقديس– هو من أقوى الأمثلة التي يتجلَّى فيها ذلك التباين في النظر إلى الآثار؛ وفي ظنِّي أنَّه يمكننا أن نقارب بين جموع التحليلات لكلِّ الباحثين، من خلال تحديد المساحات بين الأحكام.

أوَّلا: آثاره النفسيَّة.

الدِّين ضرورةٌ فطريَّةٌ شعوريَّةٌ لا علاقة له بملابسات العصر والبيئة؛ وكم كان شقاء الإنسان وحيرته وضلاله حين أخطأ فهم حقيقة هذا الارتباط، وهذا التَّفسير. أي إنَّ حاجة الإنسان إلى الدِّين حاجةٌ فطريَّةٌ مركوزةٌ في طبيعته النَّفسيَّة، ومغروسةٌ في شعوره؛ وممتزجةٌ في دمه وأعصابه، وحسِّهِ؛ ولكنَّه قد يضلُّ عن إدراك هذه الحقيقة فيشقى، ويحار، ويفقد الاستقرار.[2]

ولربَّما يرى بعض من يعتقد أنَّ الدِّين وهمٌ يحيا في زنزاناته المتديِّنون، أنَّ المقدَّس معطِّلٌ لطاقات النَّفس الإنسانيَّة، ومحبطٌ لعزيمتها في الانطلاق في فضاءات الواقع الرحبة؛ أو أنَّه معيقٌ لقدرات العقل غير المحدودة، فينتكس المرء إلى درجات الحيوانيَّة التي ترقَّى منها بفضل العقل. وهذا الكلام له بعض الجوانب من الصحَّة ولا بدَّ؛ وإنَّما التعميم يكون خطأً منهجيًّا شنيعًا. فالتقديس من حيث الأساس فعلٌ له استعداداته داخل النَّفس الإنسانيَّة؛ ومن لم يكن له مقدَّسٌ لرفضه للدِّين، سيكون له مقدَّسٌ من خارجه، يتعامل معه كما يتعامل المتديِّن؛ وهو كما قال الأوَّلون: من لم يكن عبدًا لله كان عبدًا لمن سواه.

ثمَّ إنَّ وجود المقدَّس في حياة الفرد كفيلٌ **بتحقيق متطلَّبات الروح**، فالإنسان ولكونه مركَّبًا من جسدٍ أصله إلى التراب، ومن روحٍ من السماء، فإنَّ لكلٍّ من أصلَيْه قوَّة تجذبه إليه؛ والحياة الحقَّة هي بحسن توزيع أدوات تحصيل النَّفع لكلا الأصلين، وتحقيق السعادة المتكاملة فيما بينهما؛ وإن كانت الروحانيَّة هي ذات النَّصيب الأكبر في تحقيق السعادة الحقيقيَّة للإنسان. والتديُّن بما فيه من مقدَّسات يعالج في الذات المتديِّنة حاجاتٍ فطريَّة ميتافيزيقيَّة. ثمَّ هو سبيل **للشعور بالاتِّزان النَّفسي**؛ وكذلك هو سبيلٌ **لتحقُّق الأمل والدافع للعمل.**

ثانيًا: آثاره الاجتماعية.

المقدَّس هو الذي يخرج "الدِّين" إلى الحياة حين يلامس البشرية؛ أو هو –من الناحية الوظيفية– جوهر الدين، وغايته، وأهمُّ مكوِّناته.[3] وسيجد الزائر لأيَّة جماعةٍ بدائية أنَّ القداسة هي السمة الأولى للدلالة الدِّينية لأيِّ مكانٍ، أو شخصٍ، أو شيءٍ، أو

1- أحمد أمين: الشرق والغرب، مكتبة النهضة المصريَّة: القاهرة– مصر، 1955م، ص141.

2- عبد الله الخريجي: علم الاجتماع الدِّيني، (ط2)، سلسلة دراسات في المجتمع العربي السعودي، الكتاب التاسع: جدة– المملكة العربية السعوديَّة، 1990م، ص37.

3- See: Encyclopedia of Religions ; op.cit (12/7964).

MOKARABAT

حدثٍ. وهم ينظرون إلى كلّ ما هو مقدَّسٌ نظرةً تجمع بين الاحترام والحذر في آنٍ معًا... فللمقدَّس قوَّةٌ خارقةٌ؛ قوَّةٌ تحيي وتميت في آنٍ معًا، قوّة للخير والشرّ المباشرين. وموقف الفرد اتّجاهه هو الذي يقرّر ما ينجم عنه من خيرٍ أو من شرٍّ.[1]

حقيقةً إنَّ وجود المقدَّس في حياة الجماعة هو أداةٌ **لتحقيق الترابط الاجتماعي**؛ إذ المقدَّس يبني في المجتمعات أسُسًا يجتمع النَّاس حولها؛ ويؤسِّسون نظمهم الاجتماعيَّة على قواعد من الارتباط بالمقدَّس: ذاتًا إلهيَّة، ونصوصًا، واعتقادًا وتشريعًا... الخ؛ وكلَّما كان ذلك الارتباط قويًّا كلَّما كانت العلاقات الاجتماعيَّة أكثر قوَّة؛ كما إنَّه منظومة متكاملة كفيلة **بتحقيق ديناميكية المجتمعات**، وكذا **حماية الجماعة من التفكك والزوال**؛ ولعلَّ المظاهر الدِّينيَّة المشتركة في أغلب الأديان كفيلة بتحقيق ذلك عن طريق الطقوس، والشعائر، والأعياد، وسائر العبادات الجماعيَّة... الخ.

يبقى أن نقول إنَّه ثمَّة كذلك استغلالاً سيّئًا وذو آثار مدمِّرة للمقدَّس في استعباد الشعوب من داخلها، ومن خارجها على السواء، من خلال استغلال سلطان المقدَّس في قيادة الجماعات البشريَّة، فمقولة كارل ماركس من كون الدين أفيون الشعوب ليست خاطئةً بالكلِّيَّة، بل لها حظٌّ واسع في ميدان النظر.

المطلب الثاني: استثمار الوعي بالمفاهيم المرتبطة بالتقديس في مسارات حوار الأديان.

إنَّه من خلال ما سبق بيانه من آثارٍ نفسانيَّة واجتماعيَّة يُحدثها وجود المقدَّس في حياة النَّاس؛ يكون قد اتَّضح لدينا مقدار الضرر والاضطراب الذي يُحدثه التلاعب بقيم التقديس؛ وأكثر منها حين نحاول تدنيس مقدَّس الآخر، كلامًا، أو فعلاً؛ عمدًا أو جهلاً ونسيانًا.

وعليه وفي خضم هذا الجدل، أصبحت المرجعيَّة أحد موضوعات الجدل، وطرحت المقدَّسات للنقاش[2] وإنَّه إذا دخلت فكرة التقديس مجال الأديان، وجدت طريقاً رحبة إلى مكوّناته، تفرض بعد ذلك طرقا وسلوكاتٍ مخصوصة، يلتزمها الأتباع في تعاملاتهم المختلفة مع المقدَّسات؛ وبخاصَّة حين يكون موضوع التَّقديس هو الآلهة، أو ذوات مؤسِّسي الديانات وأبرز شخصياتها؛ أو الذَّات النبويَّة في حال الإيمان بالنبوَّة؛ أو نصوصها المقدَّسة، أو أماكن العبادات فيها، والتي تفرض أصلاً طقوسًا في ولوجها، والتعبُّد فيها، أو الحج إليها؛ أو وسائط ماديَّة دون الآلهة، أو كائنات غير مرئيَّة لها علاقات بعوالم الآلهة... الخ. ولذلك نرى أنَّه لا بدَّ من تثبيت الأمور الإيجابيَّة الآتية في مسارات الحوار:

أ/ ضرورة الإلمام العلمي والمعرفي بطبيعة الأمم والمجتمعات المتحاور معهم:

فالمقدَّسات حسب تعريفها، تولد من الأمَّة، وتعيش بها وفيها، وتنتقل من جيلٍ إلى جيلٍ، دون أن تكون محلَّ تساؤلٍ وبحثٍ، لأنَّها وليدة الفعل الإيماني التلقائي للأمَّة.[3] وعلى ذلك تعرَّفْ على الأمَّة وعلى طبيعتها، ومقدَّساتها قبل محاورة أهلها.

ب/ ضرورة مناقشة الأمور المقدَّسات في إطارٍ من التخصص:

فإنَّ رسالة المفكّرين في المجتمع وأدبائه، وعلمائه وشعرائه، وفنَّانيه بحقٍّ، هي في إعادة التقييم وتمحيص الآراء السائدة، والنظريَّات القائمة والتقاليد الرَّاسخة والعادات والممارسات، التي اكتسبت بالقدم جلالاً وقداسةً.[4]

وإذا كان الأمر كذلك فهو يحتاج إلى تدرُّج، ووعيٍ، وتعاملٍ غير صادم مع الموروثات؛ ولا يصدر مثل هذا إلاَّ من أهل التخصُّص والوعي.

ج/ ضرورة فهم عمق آثار المقدَّس في النَّفس والاجتماع:

1- موسوعة تاريخ الأديان، الكتاب الأوَّل: الشعوب البدائيَّة والعصر الحجري؛ تحرير فراس السواح؛ (ط2)، دار علاء الدّين: دمشق- سوريا، 2007م، (17/1) كاتب المادة هو: John B. Noss؛ ترجمة غادة جاويش.

2- رفيق حبيب: المقدَّس والحريَّة؛ (ط1)، دار الشروق: القاهرة- مصر، 1998م، ص6.

3- المرجع نفسه، ص11.

4- ميرسيا إلياد: المقدَّس والمدنَّس، ترجمة عبد الهادي عباس المحامي؛ (ط1)، دار دمشق: دمشق- سوريا، 1988م، ص5. كلام المترجم.

MOKARABAT

فمعرفتنا المعمَّقة قبل الشروع في الحوار ينبغي أن تتقاطع فيها معرفتان: الأولى معرفة دينيَّة بالمقدَّس بطريقة موضوعيَّة مقارنة؛ والأخرى معرفة نفسيَّة واجتماعيَّة؛ وهناك فقط يمكننا من خلال مزج المعرفتين أن نقف على قيمة المسألة كخطوة أولى؛ تتلوها الخطوة الثانية، وهي الحوار وفق قواعد منضبطة، واضحة، من دون أن ترتدَّ على المُحَاوِرِ نتائج سلبيَّة غير مدروسة.

د/ ضرورة إدراك أنَّ الحوار معقدّ سبل الحجاج والإقناع في ميادين المقدَّس:

فالحوار تتعقَّد خيوطه كلَّما باعدَت بين الأطراف المتحاورة الاختلافات في الخصوصيَّات الدِّينيَّة والثقافيَّة والاجتماعيَّة؛ والأمر في هذا المثال المدروس – أي المقدَّس– يبلغ أقصاه؛ والسبب في ذلك هو مساحات اللامعقول في أكثر مباحثه بشكلٍ عامّ؛ ولذلك فإن رودلف أوتو Rudolf Otto في كتابه القيّم: "المقدَّس **Das Heilige** " الذي أصدره العام 1917م، جعل الفصل الأوَّل منه: «العقلانية واللاعقلانية»[1].

هـ/ العمل على النتائج الإيجابيَّة:

وهو نتاج ما سبق من ملابسات؛ والمقصود أنَّه إن لم نخرج بنتائج محدِّدة للباطل والحق في المسألة، فعلى الأقل لا تكون النتائج إذكاء الصِّراعات الدِّينيَّة والمذهبيَّة، والعرقيَّة والإثنية ونحوها؛ فالمقدَّس بتغلغله في القيم الحضارية لأمَّة ما، أو كتلة بشريَّةٍ ما ينفخ من روحه في اللغة والجنس والجماعة وغيرها من المميزات والمحدِّدات؛ وعادةً ما تكون النتائج تعقيداتٍ في مجال معالجة المسائل بعد ذلك لتشعُّب تعلقاتها بشكلٍ حسَّاسٍ جدًّا.

و/ عدم تدنيس مقدَّس الآخر:

لأنَّ في ذلك صدمًا للمقدِّس في عمق معتقَدِهِ الذي نشأ عليه؛ كما أنَّ تدنيسنا لمقدَّس الآخر يكون سَنًّا منَّا لسنَّةٍ تحرق الأخضر واليابس؛ وتغلق الباب نحو كلّ سبيلٍ علميَّةٍ ومنهجيَّةٍ للحوار المثمر البنَّاء. ويتبيَّن لنا الأمر في الإسلام على سبيل المثال من الموقف من المعبودات الباطلة، فقد قال الله تعالى: ﴿**وَلاَ تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ فَيَسُبُّوا اللهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ**﴾[2]. فما يُعبد من دون الله تعالى رجسٌ من عمل الشيطان، ولا حظَّ له من الإلهيَّة، وسباب الباطل ليس باطلاً[3]؛ وإنَّما سباب الآلهة الباطلة يُقابل من عابديهم بسباب الإله الحق، فكأنَّما حينها نكون نحن من سببنا الله عياذا بالله.

فإذن ثمَّةَ اعتبارا للمآلات والمقاصد؛ ألسنا نرى أنَّه عندما قال عبدُ الله بن أبيّ: أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليُخرجنَّ الأعزُّ منها الأذلَّ؛ قال عمر: يا رسول الله دعني أضرب عنق هذا المنافق؛ فقال النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم: « دعهُ؛ لا يتحدَّث النَّاس أنَّ محمَّداً يقتل أصحابه».[4]

ولكن لا يعني ذلك إطلاقًا سلوك سبيل المجاملة التي لا تخدم الحقيقة ومعالِمَها؛ فهناك الحقيقة الاجتهاديَّة التي يمكن أن نختلف حولها، فيكون منَّا المصيب ومنَّا المخطئ؛ وهناك الحقيقة التي يترتَّب عليها الحقُّ والباطل وكلُّ ذي دينٍ يراها مسلَّمَةً في دينه؛ وإنَّما ينبغي في الأخير أن نردَّ الحكم بموضوعيَّة، إلى معالجةٍ علميَّة، بخلفياتٍ ذات نيَّاتٍ حسناتٍ.

ز/ ضرورة التفريق بين الإساءة للمقدَّس، وبين عدم الإيمان به:

فمثلاً نجد عندنا نحن المسلمين هداية في ذلك في حواراتنا مع الآخر؛ فإذا لم يصدِّق الآخر مثلاً بنبوَّة محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم، فليس في ذلك إساءة؛ ولكن وصفه –عياذا بالله وفُض في من يصفه بذلك– بأنَّه مجنون، أو كذَّاب؛ أو مفترٍ؛ أو متعطِّشٌ للدِّماء، أو كان شهوانيًّا ... إلخ، فذلك هو الإساءة عينُها.

ح/ الإذعان عند الحقّ، والتوقف عند الشك:

ولربَّما نجد مثالاً على ذلك في الإرشاد النبويّ فيما يتعلَّق بالرواية عن أهل الكتاب، فهم نسوا حظًّا ممَّا ذُكِّروا به، ولم ينسوا كلَّ ما ذكِّروا به؛ فعند محاورتهم: نؤمن بما عندهم من حقٍّ، ونكذِّب بما كذَّبه القرآن الكريم؛ وما لم يكن لنا به علمٌ نردُّه إلى العليم

---

1 – Rudolf Otto : Das Heilige (kein mehr informationnen) ; p1-4.

2– الأنعام: 108.

3– طبعاً نستثني من ذلك من ألّهوا بغير إذنهم من الصالحين والأنبياء ونحوهم كالملائكة، فلا يجوز سبابهم.

4– البخاري: تفسير القرآن، باب قوله: « سواء عليهم استغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم إنَّ الله لا يهدي القوم الفاسقين»؛ ح 4905، ص 1040.

MOKARABAT

الخبير، من غير افتياتٍ حيثُ نكذِّب بحقٍّ، أو نصدِّق بباطلٍ. فعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه، قال: « كان أهل الكتاب يقرؤون التَّوراة بالعِبرانيَّة، ويُفسِّرونها بالعربيَّة لأهل الإسلام، فقال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم: لا تصدِّقوا أهل الكتاب ولا تكذِّبوهم؛ وقولوا آمنَّا بالله وما أنزل إلينا»[1].

وفي موضعٍ آخر يبيّن لنا سبب عدم التَّصديق والتَّكذيب إذ قال صلَّى الله عليه وسلَّم: « فإنَّكم إمَّا أن تصدِّقوا بباطلٍ أو تكذِّبوا بحقٍّ»[2]. وقال: « لا تسألوهم عن شيءٍ فيخبروكم بحقٍّ فتكذِّبوا به، أو بباطلٍ فتصدِّقوا به»[3].

ط/ ضرورة احترام إنسانيَّة الإنسان:

فالحوار يستند إلى نظامٍ خلقيٍّ راقٍ، يتجنَّب الضغط والإكراه، والنفي والإلغاء، واستغلال القدرات، والمهارات والمعارف؛ إذ لا بدَّ من احترام إنسانيَّة الإنسان... فانتفاء خصوصيَّة الأفراد والشعوب والدول، اعتداءٌ صريحٌ على مبدإ التكيُّف والعدالة، ومن ثمَّ انتفاء للقيم الحضارية الأصيلة.[4]

والمقدَّس لدى طائفة مدنَّس عند أخرى؛ ويجمعهما صفة الإنسانيَّة؛ والمثل الأنصع في احترام إنسانيَّة الإنسان قيام النبيّ صلَّى الله عليه وسلم لمَّا مرَّت به جنازةٌ، « **فقيل له: إنَّها جنازة يهوديٍّ، فقال: أليست نفساً؟**»[5].

- **خاتمة**

في خاتمة هذا البحث يجمُل بنا ههنا ذكر أهمّ محطَّاته وأهمّ نتائجه كالآتي:

- المقدَّس كمصطلحٍ ومفهومٍ دينيٍّ إنَّما نشأ مصاحبًا للطهر تمييزًا له عن عكسه، وتحديدًا في مجال الممارسة الطقسيَّة؛ مع ارتباطه بمشاعر مختلطة بين التعظيم والخوف، وربَّما مزيجٍ آخرَ من اللامعقول المرتبط بالسحر والطلاسم ونحوها. وفي باب الأحكام أُسقط عليه الأمر والنهي له، ولمقابله، أي الحلُّ والحرمة بالأساس، فأحيط بما رفعه إلى أن يكون أساسًا وجوهرًا في الشعور الدِّيني، وسرى إلى كلِّ مكوِّنات الظاهرة الدِّينيَّة.
- مقابل المقدَّس صعبٌ نوعًا ما أن نحدِّد له لفظًا يقوم مقام المفاهيم التي نريد مقابلتها فيه من المقدَّس؛ وأقربها في ذلك لفظة المدنَّس وإن لم تفي تمامًا بالمقصود منها من المقابلة؛ فلتكن اصطلاحًا – ولو قاصرًا– على مقابل المقدَّس.
- القداسة ومقابلها لهما رمزيَّات كثيرة تتغلغل إلى عمق الذات المتديِّنة؛ كما تَسِمُ معالم حياتها بالكلِّيَّة، بأحكام طقوسيَّة، وأحكام تشريعيَّة؛ فـ: "**افعل**"، و"**لا تفعل**" هي أثرٌ مباشرٌ لانقسام العالم بين طهارة ونجاسة، بين خيرٍ وشرٍّ، بين ملائكة وشياطين، بين حق وباطل... الخ.
- لا يتناول التقديس الذَّات المألوهة وفقط، وإنَّما يصيب أشياء كثيرة قد تقدَّسُ كالآلهة، أو ما دونها، أو لأنها نابعة منها كالأوامر والنواهي، أو لأنَّها من متعلَّقاتها ككونها تحلُّ فيها الآلهة، أو باركتها، أو لأنَّ فيها سرًّا لا يدرك بالعادة... الخ ولذلك فقد قُدِّست أرواحٌ، وذواتٌ بشريَّة، وحيوانٌ ونباتٌ، ونصوصٌ ومعانٍ؛ ومبانٍ، وأوانٍ... الخ.
- المقدَّس هو من أعظم المكوِّنات التي تصوغ الخصوصيَّات الدِّينيَّة والثقافيَّة للمجتمعات؛ حتَّى الذي لا يدين بشيءٍ معلوم، فله معالم مقدَّسة تصوغ خصوصيّته الثقافية والاجتماعيَّة كالماديَّة مثلاً. ولمَّا كانت الكتل البشريَّة المتنوعة مختلفة ومتباينةً أشدَّ التباين في مميِّزاتها المقدَّسة، وكان المقدَّس ذو سلطانٍ لا حدود له؛ وكان المقدَّس لدى قومٍ مدنَّسًا عند غيرهم؛ إذن يكون المقدَّس عاملاً خطيرًا في تصادم الكتل البشريَّة بشكلٍ رهيبٍ مالم توضع ضوابط وإرشادات في إرساء دعائم الحوار البنَّاء في مجال المقدَّسات ككلٍّ.

1- البخاري: الدَّ وحيد؛ باب ما يجوز من تفسير التَّوراة وغيرها من كتب الله بالعربيَّة وغيرها لقول الله تعالى: ﴿فأتوا بالتَّوراة فاتلوها إن كنتم صادقين﴾؛ ح7541، ص1499.

2- أحمد في المسند عن جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله تعالى عنه: (338/3).

3- مسند أحمد (387/3).

4- حسين جمعة: ثقافة الحوار مع الآخر، مجلة جامعة دمشق، العدد الثالث مع الرابع، 2008م، ص17.

5- البخاري: الجنائز، باب من قام لجنازة يهودي، ح1312، ص 271.

MOKARABAT

- التقديس في آثاره النفسانيَّة والاجتماعيَّة فيها الإيجابيُّ وفيها السلبيُّ؛ فأمَّا الجانب الإيجابيُّ فيتناول إيجابيَّات التديُّ في حدِّ ذاته بحيث يكون له قدرةٌ لا يستهان بها في توازن الفرد النَّفسي، وإعطاء الرُّوح ما ينبغي لها من المنزلة واللامحدودية في القوَّة والطاقة، كما يكون عامل قوَّة ولُحمةٍ وترابط للمجتمع وبناء أفراده، بما يصبغهم به من السمات والخصوصيَّات. وأمَّا الجانب السلبيُّ فله آثاره الوخيمة في مجال الحوار، بخاصة في جانب الجدال حوله، وإدخال مباحثه إلى الدائرة العقلانيَّة.
- ينبغي استثمار الوعي بالمفاهيم المرتبطة بالتقديس في مسارات حوار الأديان ولذلك نوصي بالآتي:
- أ/ ضرورة الإلمام العلمي والمعرفي بطبيعة الأمم والمجتمعات المتحاور معهم.
- ب/ ضرورة مناقشة الأمور المقدَّسات في إطارٍ من التخصص.
- ج/ ضرورة فهم عمق آثار المقدَّس في النَّفس والاجتماع.
- د/ ضرورة إدراك أنَّ الحوار معقدّ سبل الحجاج والإقناع في ميادين المقدَّس.
- هـ/ العمل على النتائج الإيجابيَّة.
- و/ عدم تدنيس مقدَّس الآخر.
- ز/ ضرورة التفريق بين الإساءة للمقدَّس، وبين عدم الإيمان به.
- ح/ الإذعان عند الحقِّ، والتوقف عند الشك.
- ط/ ضرورة احترام إنسانيَّة الإنسان.
- ي/ احترام الخصوصيَّات الدِّينيَّة والثقافية من خلال المقدَّس.

قائمة المصادر والمراجع

- ميرسيا إلياد: **المقدَّس والمدنَّس**، ترجمة عبد الهادي عباس المحامي؛ (ط1)، دار دمشق: دمشق– سوريا، 1988م.
- حسين جمعة: **ثقافة الحوار مع الآخر**، مجلة جامعة دمشق، العدد الثالث مع الرابع، 2008م.

رفيق حبيب: **المقدَّس والحرِّيَّة**؛ (ط1)، دار الشروق: القاهرة– مصر، 1998م.

- **موسوعة تاريخ الأديان**، الكتاب الأوَّل: الشعوب البدائيَّة والعصر الحجري؛ تحرير فراس السواح؛ (ط2)، دار علاء الدِّين: دمشق– سوريا، 2007م.
- أحمد بن محمَّد بن علي الفيُّومي المقري: **المصباح المنير**، مكتبة لبنان: بيروت– لبنان، 1987م.
- أبو محمَّد عبد الله بن مسلم بن قتيبة: **تفسير غريب القرآن**، تحقيق السيد أحمد صقر، دار الكتب العلميَّة: بيروت– لبنان، 1978م.
- أبو حاتم أحمد بن حمدان الرازي: **كتاب الزينة في الكلمات الإسلاميَّة العربيَّة**، تحقيق حسين بن فيض الله الهمداني اليعبري الحرازي، (ط1)، مركز الدراسات والبحوث اليمني: صنعاء– اليمن، 1994م.
- صبحي حموي اليسوعي: **معجم الإيمان المسيحي**، أعاد النظر فيه من النَّاحية المسكونيَّة الأب جان كوربون،(ط1)، دار المشرق: بروت– لبنان، 1994م.
- علي بن محمَّد الشريف الجرجاني: **كتاب التعريفات**، مكتبة لبنان: بيروت– لبنان، 1985م.
- جيل فيريول: **معجم مصطلحات علم الاجتماع**، ترجمة أنسام محمد الأسعد، مراجعة بسام بركة، (ط1)، دار ومكتبة الهلال: بيروت– لبنان، 2011م.
- مصلح الصالح: **الشَّامل، قاموس مصطلحات العلوم الاجتماعيَّة**، (ط1)، دار عالم الكتب: الرياض– المملكة العربيَّة السعوديَّة، 1999م.
- محمّد علي التهانوي: **كشّاف اصطلاحات الفنون والعلوم**، ت علي دحروج، ترجمة فارسية: عبد الله الخالدي، ترجمة أجنبية جورج زيناتي، إشراف ومراجعة: رفيق العجم؛ (ط1)، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت– لبنان، 1996م.
- أبو القاسم جار الله محمود بن عمر بن أحمد الزمخشري: **أساس البلاغة**، تحقيق محمَّد باسل عيون السود، (ط1)، دار الكتب العلميَّة: بيروت– لبنان، 1998م.
- أبو هلال العسكري: **الفروق اللغوية**، تحقيق محمَّد إبراهيم سليم، دار العلم والثقافة: القاهرة– مصر.
- مجد الدّين محمّد بن يعقوب الفيروزآبادي: **بصائر ذوي التَّمييز في لطائف الكتاب العزيز**؛ ت محمَّد علي النجَّار، (دط)، المكتبة العلميَّة: بيروت– لبنان.
- ميشال مسلان: **علم الأديان، مساهمة في التأسيس**؛ ترجمة عز الدِّين عناية، (ط1)، كلمة، المركز الثقافي العربي: أبو ظبي– الإمارات العربيَّة المتَّحدة، 2009م.
- فراس السواح: **دين الإنسان؛ بحث في ماهية الدّين ومنشأ الدافع الدّيني** (ط4)، دار علاء الدّين، دمشق– سوريا، 2002م.

MOKARABAT

- محمّد أحمد لوح: **تقديس الأشخاص في الفكر الصوفي**، (ط1)، دار ابن القيّم: الدمّام- المملكة العربيَّة السعوديَّة، دار ابن عفَّان: القاهرة- مصر، 2002م.
- محمّد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزبه البخاري: **الجامع الصحيح**، تحقيق طه عبد الرؤوف سعد، الدَّار الذَّهبيَّة: القاهرة- مصر.
- أبو عبد الله أحمد بن حنبل: **المسند** (وبهامشه منتخب كنز العمَّال في سنن الأقوال والأفعال)، ، دار الفكر.
- مسلم بن الحجَّاج النَّيسابوري: **الصَّحيح**، تحقيق خليل مأمون شيحا (ط1)، دار المعرفة: بيروت- لبنان، 2005م.
- زهير بيطار: **حوارات حول فهم النَّص**، (ط1)، دار الهادي: بيروت-لبنان، 2004م.
- محمّد حسين هيكل: **الإمبراطوريَّة الإسلاميَّة والأماكن المقدَّسة**، دار الهلال: القاهرة- مصر.
- عمار طارق توفيق: **التوظيف الحيواني في حضارتي بلاد الرافدين، ومصر القديمة – لمحاتٌ حضارية من الناحية الفنِّيَّة والأدبيَّة**- مجلة كلية الآداب، جامعة بغداد، العدد 97.
- أحمد بن فارس: **المقاييس في اللغة**، ت شهاب الدّين أبو عمرو؛ (دط)، دار الفكر: بيروت- لبنان.
- مالك بن نبي: **الصراع الفكري في البلاد المستعمرة**، دار الفكر: دمشق- سوريا 2002م.
- أحمد أمين: **الشرق والغرب**، مكتبة النهضة المصريَّة: القاهرة- مصر، 1955م.
- عبد الله الخريجي: **علم الاجتماع الدِّيني**، (ط2)، سلسلة دراسات في المجتمع العربي السعودي، الكتاب التاسع: جدة- المملكة العربية السعوديَّة، 1990م.
- بديع الزمان النورسي: كليات رسائل النور: **المكتوبات**؛ ترجمة إحسان قاسم الصالحي؛ شركة سوزلر: القاهرة- مصر، 2001م.
- P. Marie-Joseph LAGRANGE : **Etude sur les Religions Sémitique**; 2éme édition ; Librairie Victor LECOFFRE : Paris-France, 1905.
- Bertram C. A. Windle: **Religions: past and present, an elementary account of comparative religion** ; Williams and Norgate LTD: London, 1928.
- **Encyclopedia of Religions** ; 2nd edition ; Macmilan reference ;USA.
- Rudolf Otto : **Das Heilige** (kein mehr informationnen).

MOKARABAT